تتنزى من جلده؛ والحزن يفيض من نفسه دون أن تضعف هذه النفس او تهون، على الرغم من انه يركن في نهاية قصيدته الى القضاء لعله يجزي كل من خان الوطن او اساء اليه، وكنا نتمنى لو أنه اختتم القصيدة بدعوة الى الثورة والانتقام. ولكن الظروف التي واكبت تلك السنين السود التي تلت النكبة مباشرة كانت غلابة وقاسية، فقد توزع الشعب على أراضي المنافي، وفقد فيها شخصيته، وتبعثرت آماله، ولم يعد فيها للشاعر، وهو يحس بالخواء الوطني والقومي حوله، غير أنه يركن الى القضاء والقدر، منتظرا ما تأتي به الأيام، وهو واثق بعدل السماء واعتدال دورة الزمان يوما:

يـا «فلسطين»... كفكفيهـا دموعـا ... أرسلتهـا الأحـزان غيثـا صبيبـا
مـا جداء الدمـوع والجـرح دام ... عـز في البـرء مـرهمـا وطبيبـا
فـأنيمي الأسى بصـبـر جمـيـل ... واحمليه في القلب جرحـا خضيبا
وارقـبـي دورة الزمـان بـحـكـم ... سـار بـين الأنـام سيـرا عجيبـا
فلعـل القضـاء يجـزي مسيئـا ... بـالذي قـدمت يـداه قـريبـا...!

ولكن المأساة وأحزانها ظلت وتظل أكبر من كل تأس وتجمل فردي او جماعي، ومن ذا الذي كان يقدر استقصاء احزان المحزونين المشردين وتجسيد احزانهم؟ ومن ذا الذي كان يعرف مدى هذه الأحزان غير الله؟ ان حسن البحيري يضع يده أمامنا على مكمن الوجع في قلبه وهو يرى الأيام تتوالى... ومسافة الزمان تطول عن حيفا... والذكريات تتعتق في نفسه وتجرّحها. وهل نستطيع أن نلومه على بكائه؟ وماذا كان في مقدوره أن يفعل؟ وما هي امكانات الفعل في مطالع الخمسينات، حتى على مستوى الأمة؟! واذا رأيت الرجل يبكي، فاعلم انه بمقدار صدقه في دموعه تكون بلواه أعظم. ودموع البحيري هنا ليست دموع شاعر وحسب، وانما هي فجيعة الرجل الانسان فيما يمكن ان نصفه «جوهر حياته». لقد تمكن ان يغرس شعاف «الكرمل» وشعابه زهر صباه بجهده وكده، وأن يرويه من سلسلة، يقول:

فنما على جُهد الضنى... وعنائـه ... وزكا على جرح عسير المحمل(٥٠)
حتى استـوى... وهدهـد خاطري ... مَجْنى... وأكمام الرجاء بسمن لي
قـطفتـه كف غـير كفي عـنـوة ... وجنـاه من أرضي غريب المنجـل!

انها روح فلاح يحس بسلب أرضه وزرعه والاستيلاء عليهما بالقوة! اوَ لا يحق للشاعر هنا أن يعلن ضعف الانسان فيه، وعجزه في مثل هذا الموقف؟ وهو عجز مستمد من عجز شعبه وأمته انذاك أمام كل قوى القهر، وان كان عجز الأمة غير مشروع. اننا نستشعر حقيقة الصدق في هذه الانبثاقة العاطفة التي نحسها نبعا سلسبيلا ينبجس من عرق صخرة من صخور جبل الكرمل:

مـا أشـرقت عينـاك إلا خـانني ... بصبابتي... صبري... وحسن تجملي
وتحسست كفـاي من ألم الجوى ... سهمـا مغـارس نصله في مقتـلي
وتسـارعت من مهجتي في وجنتي ... حمر المدامع جدولا في جدول(٥١)

وهذه القصيدة نموذج على القصيدة التقليدية التي تحقق بالشكل التقليدي غاية الشاعر في تجسيد التجربة الشعرية والمعاناة الصادقة، حيث نحس ان صاحبها يسخر،